اقتلاع الجذور في " نحو حياة أفضل " لتوفيق الحكيم

أ/د.عمار رجال
جامعة عنابة

الملخص:
تعالج مسرحية "نحو حياة أفضل" واقع المجتمع المصري في منتصف القرن الماضي، حيث مشاكل اجتماعي خطيرة كالجهل والفقر والحرمان، وأخرى سياسية كالقهر والظلم والاستبداد... إلى درجة تحالف الإنسان مع الشيطان بهدف الوصول إلى حلول تغير هذا الواقع المرير. وهذا من خلال ما يطرحه الكاتب من تحليل ومواقف.

الكلمات المفاتيح: المجتمع - الشيطان – الإصلاح – الجهل – الحرمان - الاستبداد

Abstract :
This paper deals with the Egyptian social problems during the last century such as poverty, oppression and injustice. The writer “Toufik al Hakim” tries to provide some solutions with the purpose of giving hope to the Egyptian society to get out this situation.
Keywords: Society - Problems – Misery – Devil – Oppression – Injustice – Hope

مسرحية كتبها توفيق الحكيم عام 1955 من فصل واحد وتبدأ بشكل تقليدي في حجرة بسيطة في منزل ريفي، والمصلح جالس يقرأ كتابا تحت ضوء مصباح غازي فوق مائدة صغيرة، ويدور حوار بين المصلح وزوجته حول الأوضاع الفاسدة في الريف المصري حيث الفقر والبؤس... وأمنية المصلح أن يغيّر أحوال النّاس نحو حياة أفضل، وتسأل الزوجة عَمَّا كان يقرأ، ويردّ هو "نعم... كنت أقرأ قصة "فاوست"... قصة ذلك العالم الفيلسوف الهرم الذي باع نفسه للشيطان، كي يردّه إلى الشباب: أي إلى تلك الحياة التي هي أفضل في نظره... كنت أقرأ الآن هذه القصة، وأسائل نفسي: «ترى لو جاءني الشيطان الليلة، ماذا أطلب إليه؟»[1] وينال التعب من الزوجة فتمضي إلى النوم، ويبقى المصلح منهمكا في القراءة، وفجأة يدخل عليه الشيطان – الذي يوصف شكلا بأنه شبح- ويحاوره مقدّما له عرضا مغريا يتمثل في أن يحقق أمانيه ويساعده في مهمة إصلاح الناس نحو حياة أفضل، وثمن ذلك هو أن يكون المصلح صادقا مع النّاس حين يسألونه عن سرّ هذا الإصلاح السريع، ويتردد المصلح إذ كيف يقبل بهذا الشرط ويسلم مصائر النّاس للشيطان: «بمعونة الشيطان؟... كلا... هذا مستحيل!... لن أستطيع أن أصارح الناس بأن الفضل في إصلاحهم، راجع إلى معونة الشيطان!!»[2]، ويوافق المصلح بعد لأي على هذا الشرط: "قبلت الشرط!... سأصارحهم!"[3] وعلى الفور يغير الشيطان كل شيء من حول المصلح، فتختفي الأكواخ والقذارة ويظهر بدلا منها مبان جميلة تحيط بها الحدائق ممّا أثار ذهول المصلح: «أين الأكواخ؟... أين القرية القذرة؟ أين الأكواخ الحقيرة؟ ما كل هذه المباني الجميلة؟ ما كل هذه البساتين العامّة؟ ما كلّ هذه "الفيلات"؟ التي تحيط بها الحدائق الصغيرة؟ يا للمعجزة! أقومي يعيشون في هذه الجنة؟!».[4]

ويستعيد المصلح وعيه ويفيق من ذهوله، فيطلب أن يرى النّاس ويطمئن عليهم، خاصة أولئك المحرومين من كل شيء وعلى وجه التحديد ذلك الأجير الذي يراه دوما يرعى المواشي بصحبة زوجته التي تجمع الروث لتصنع منه وقودا، ويحضرهما الشيطان له، فيخبرانه عن سكان القرية، وكيف تحولوا جميعا إلى ملاك

يعيشون في رفاهية لا تخطر على بال، وأنه هو نفسه –الأجير- أصبح يملك أرضا واسعة، وأنَّ بالقرية مصانع زراعية للخضر والفاكهة المعبأة والجبن واللبن المحفوظ... وأن الجمعية الزراعية تقدم لهم كل الدعم بإعطائهم محاريث وجرّارات و"ماكينات" لقاء اشتراك رمزي سنوي، لكن المصلح يتفاجأ ويكتشف أيضا كيف أعمى الغنى هذا الأجير الذي راح يبحث عن زوجة ثانية وكيف أنه يبيت الليل مع أصحابه يشربون ويدخنون الحشيش... أمّا البيت الجديد فلم يقدر بعد على تجاوز الصدمة حيث تترك الزوجة الدجاج يبيض على الراديو وتلعب فوقه الكتاكيت، وغيرها يتركن الأرانب تلد على الفراش... فعلا لقد قام الشيطان بعمل جبّار فغيّر حياتهم وحوّل بؤسهم وشقاءهم إلى رخاء ورفاهية، لكنها الرفاهية التي ولّدت الحقد والكراهية والحسد... بين جميع النّاس حتى الأكثر ثراءً، إنه الرخاء الذي نال من بدن الإنسان وعقله، فتركه عليلا خائر القوى، الأمر الذي أثار حفيظة المصلح وجعله يرفض هذا التغيير كلية، فقد غيّر الشيطان حياة النّاس المادية، لكنه لم يغير نفوسهم: «شرطنا هو أن تصلح النّاس، وإصلاح النّاس يشمل إصلاح النفس قبل كل شيء!... هذا هو جوهر الإنسان».[5] وهكذا تكون نتيجة التجربة –بطبيعة الحال مع الشيطان- مآلها الفشل، فالشيطان لا يأتي منه إلا الخسران المبين.

1- البعد الاجتماعي:

ترك الحكيم إرثا متنوعا ناقش فيه الكثير من القضايا التي تهم الإنسان والمجتمع في آن واحد، سواء أكانت هذه القضايا دينية أو فكرية أو فلسفية أو سياسية أو اجتماعية... اللافت فيها أن الحكيم واكب كل التطورات السريعة التي عاشها العالم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، فهو لم يبق حبيس رؤية جامدة بل ظل يتطور ويواكب كل جديد، فمثلا في قضايا دينية، تشهد التعديلات التي أدخلها على أعمال كثيرة كان قد كتبها من قبل من مثل "عصفور من الشرق" و"براكسا" أو مشكلة الحكم، و"المرأة الجديدة"... أما فيما يخص القضايا الاجتماعية فتشهد كل من "عودة الروح" و"يوميات نائب في الأرياف" و"حمار الحكيم"... وغيرها على تطور الكاتب، وفي هذا الاتجاه يمكن أن ندرج مسرحيتنا "نحو حياة أفضل" التي حاول من خلالها أن يقف عند المجتمع المصري وما يعانيه من مشاكل اجتماعية مختلفة تنوعت بين الفقر والبؤس والتخلف والجهل... وكم حزَّ ذلك في نفسه حتى بلغ به الأمر أن يؤمن بحلول سحرية مستلهما من فاوست بطل غوته العملاق الذي استطاع أن يغير الكثير بعدما عاش من فساد وساهم فيه، إذ عقد العزم على العمل فيما يفيد النّاس ويرضي الله، فها هو المصلح يتحالف مع الشيطان آملاً أن يُغيّر من حياة أبناء قريته بعد الذي رآه وعايشه من صور مفزعة، ومن هنا جاء السؤال الملِحّ: ما هو هذا الواقع الذي أفزع مصلح الحكيم وحتَّم عليه التحالف مع الشيطان!؟

1-1- فقر وبؤس:

لخَّص الحكيم معاناة أهل القرية من خلال تلك الصورة المرعبة التي رسمها للفلاح الأجير "محروس":«المصلح: رأيت هذا الصباح تحت شجرة السنط المواشي، ومعها الأجير الذي يسرحها، أقذر منها وأحقر، بثوبه الوحيد الخلق الذي لا يستر جسمه العاري، وخلفه امرأته في مثل فقره تجمع بيديها الروث، لتعجن منه وقودا!»[6]

إنّها صورة تصدم القارئ، تدفعه لأن يقوم بشيء ما، إنها الصورة التي لا نفرق فيها بين الإنسان والحيوان، وربما حال الحيوان فيها أفضل من حال بني البشر، فالأجير يكاد يمشي عاريا، فلباسه لا يغطي جسمه والنظر إليه، أقذر وأحقر من النظر إلى المواشي، ولا يختلف حال زوجته عن هذه الصورة، فالحاجة تدفع بها يوميا إلى الخروج بحثا عن الروث لتعجن منه وقودا.. نعم لقد نجح الحكيم في تجسيد واقع مرٍّ بقدر ما يثير الألم والحزن بقدر ما يثير تأنيب الضمير وتحريك العقل وتعذيب الفؤاد، قصد عمل شيء ما علّه يغيّر من هذه المأساة، لأنه هو بصفته مصلحا وكاتبا فكَّر وعقد العزم مُبيحا لنفسه كل ما من شأنه أن يخفف من جحيم أبناء القرية، فقبل بشروط الشيطان وأبرم معه الاتفاق في سبيل حياة أفضل لأهل القرية.

1-2- جهل وتخلف:

يطلعنا الحكيم مرة أخرى من خلال صورة هذا الفلاح وزوجته على واقع آخر لا يقل بشاعة من واقع الفقر والبؤس ألا وهو واقع الجهل والتخلف، واقع يثير ذهول المرء ويحتم عليه طرح أسئلة ربما يعجز عن الإجابة عنها، ويدرك الحكيم من الوهلة الأولى بأن تغيير هذا الواقع الأليم يتطلب جهدا جبّارا وتضحيات جسام، لأنه مرض أصاب العقول وتمكّن منها، وترك النّاس عاجزة تماما لا تقوى على أي فعل إيجابي، فها هو الأجير بعد أن تغيّرت حياته نحو واقع أفضل، وأصبح يملك أرضا ومنزلا.. لم يقدر على التأقلم مع الواقع الجديد نتيجة عدم إدراكه للمحيط الخارجي، فعالمه لا يتعدى عالم المواشي التي يسرحها، أي أنه يعيش جهلا رهيبا وتخلفا عميقا، فها هو يسخر من التعليم ويفتخر بأن الراديو يبيض عليه الدجاج:

المصلح: لماذا لا تمتع نفسك بقراءة كتاب جيد؟... أو بمحادثة زوجتك في موضوع ظريف؟... أو الإصغاء إلى إذاعة لطيفة في الراديو؟...

محروس: "الراديو" عندنا في حجرة الضيوف يبيض عليه الدجاج وتلعب فوقه الكتاكيت!...[7]

ولا يختلف حال الجيران عن حال محروس، فهم بدورهم بعيدون كل البعد عن حياة التمدن والتحضر بل هم في تخلفهم يسبحون:

خضرة: وماله؟!... هل نحن وحدنا...غيرنا يترك الأرانب تلد تحت الفراش... وبلاليص المش والعسل الأسود خلف الكنبة...[8]

لم يكن التخلف والجهل وقفا على الفقراء فحسب، بل الأثرياء كذلك يعانون جهلا قاتلا وتخلفا رهيبا:

المصلح: إنك لم تصنع شيئا جديدا... إنك جعلتهم على غرار الطراز المعروف لأولئك الأثرياء من ملاك الريف!... لقد دخلت فيما مضى قصرًا لثريّ ريفي يملك أكثر من عشرين ألف فدان، ورأيت بعيني رأسي الماعز يمشي على السجاجيد الثمينة في الصالون الذهبي الفاخر!... كما رأيت أقطاب هذا البيت لا يفقهون عن معنى الحياة أكثر مما يفهم صاحبك "محروس"! يرتدون أفخر الثياب، ويذهبون إلى أوروبا بالباخرة والطائرة والكاديلاك، ويعودون وما فهموا من متع النفس أكثر مما يفهم "محروس"!....[9]

يَبْدُو جَليًّا أن الحكيم وجد في فاوست النموذج المثالي ليعبّر عن مواقفه الثائرة الغاضبة على وضع لا يمكن السكوت عنه، فمن يقبل أن يعيش أهله حياة شبيهة بحياة الحيوانات، ومن ثمة فهو يطرح سؤالا غير مباشر: من هو المسؤول عن هذا الوضع المأساوي؟ ولا نجد جوابا مباشرا بل نفهم ضمنيا بأن المقصود هم الحكام

الذين انساقوا وراء شهواتهم وإغراءات الشيطان وتركوا الشعب يرزخ تحت وطأة الفقر والجهل... وعرضه لآفات المرض والتخلف... فكان أن ضاعت كرامة الفرد وتعطّلت معها طاقاته الإبداعية العملية... فكأننا هنا بالحكيم يعرض هذه الأمراض الاجتماعية للمناقشة بغرض اعتمال الفكر وشحذ الذهن وإثارة النفس: «إن اتجاه مرآة الأدب إلى المجتمع لبلورة روحه، وإبراز كفاحه ونضاله والإشادة بقيمه ومثله وفضائله وعاداته وتقاليده يجعلنا نحكم عليه بأنه أدب اجتماعي، لأنه يجسد قضية طبقة ليرفع مستواها، أو ينقدَ حكومة أو هيئة للإطاحة بنظامها وسياستها، فالعبرة هنا هي القضية التي تمس جماعة وتتعرض لأقوام وتتصدى لأمة، بغية تخليص المجتمع من شوائبه، والقضاء على شقوته، وإزالة الخوف والقلق من النفوس، وغرس الإيمان بمستقبل الإنسان»[10]. إن الحكيم مقتنع بأن الاتجاه الاجتماعي في الأدب يفلسف قضايا مختلفة من اقتصادية وسياسية واجتماعية، ويعرضها للجدل والمناقشة بغرض تحريك النفوس وإثارة الهمم... وعليه يُحمّل المبدع على أن يكون لسان قومه وشاهد عصره. من هنا لم يجد الحكيم حرجا في أن يستلهم صورة شيطانه من شيطان غوته "مفستوفليس" بدءًا من لهجة الصدق الحارة –المخادعة مع ذلك- فكلاهما يتخذ الصدق مطية إلى إقناع صاحبه أو إغوائه بالوقوع في الشباك المنصوبة له، فها هو شيطان الحكيم يتباهى ويفتخر بتقديسه مبدأ الصدق:

الشيطان: وعليك أن تقول للناس الصدق...

المصلح: تريد أن أقول للنّاس إن الشيطان قد عاونني في إصلاحهم!!...

الشيطان: ولم لا؟...أليس هذا هو الصدق؟!...ولكن ماذا؟... ليست لك الشجاعة أن تكون أمام الناس رجلا صادقا!

المصلح: بمعونة الشيطان؟ كلا... هذا مستحيل!... لن أستطيع أن أصارح النّاس بأن الفضل في إصلاحهم، راجع إلى معونة الشيطان! !...

الشيطان: ستمتنع إذن عن قول الصدق؟!..حتى كلمة الصدق لا أستطيع أن أتقاضاها منكم!![11]

لكن ما يميّز شيطان غوته هو حدّة الذكاء والبعد الاستراتيجي، واختيار الهدف، فهو لم يهدف لإفساد جماعة أو إغوائها... بل هو قصد جوهر الطبيعة، ألا وهو الإنسان المؤمن، وعمل المستحيل من أجل أن يكفر بالله وينضم إلى مملكة الشياطين في حربها مع الله، وهو في هذا يلتقي أيضا مع شيطان "مارلو"، كما استمد الحكيم فكرة فشل الشيطان في مسعاه من فشل شيطان غوته، إذ انقلب فاوست على الشيطان ضاربا عرض الحائط الميثاق الذي أبرمه متحديا إياه إذ اقتنع بأنه شخصية لا يمكن أبدًا أن يصدر منها خيرٌ، وبالتالي قرَّر أن يمضي في طريق دليله فيها صحوة الضمير والعودة إلى الله والتضحية عن طريق العمل الجاد.. إنها اللحظة التي استغلها الحكيم بل المصلح الذي هاله منظر الرخاء والرفاهية وانعكاساته الخطيرة، فثار في وجه الشيطان بعزيمة قوية وإرادة خالصة معربا عن إيمانه بالإنسان الصالح الخيّر هازئا بكل ملذّات الحياة الأمر الذي أفزع الشيطان فوَلّى هاربا معترفا بهزيمته: «لم يبق لي غير الانصراف... إنّ ما تطلبه لا أستطيعه أنا...»[12]

وخلاصة المصلح عند الحكيم أنه إنسان يحمل في نفسه رغبة كبيرة في إصلاح حياة النّاس، وأنه يستشعر في نفسه حيوية وقوة تكبلها أفكار ونظريات متوارثة فيحاول الانطلاق، فهو إنسان يجمع بين وحي الإيمان وثورة العقل في الوقت نفسه، وبالتالي لم يتردّد لحظة ما أن يغامر في سبيل تحقيق مسعاه أي إصلاح شؤون أهل القرية، فتعاقد مع الشيطان ونفسه غير مطمئنة لكن شوقه للإصلاح غلبه، وهو الموقف نفسه عند فاوست غوته الذي دفعه شوقه للمعرفة المطلقة أن يتحالف مع الشيطان لكن دون حدود أو شروط، فهو يؤمن بالمغامرة التي لا تحدّها حدود بل المغامرة التي تتمرد على المألوف وتسعى للمستحيل:

«فاوست:...أنا مستعد للنشوة، وللمتعة الأليمة، وللكراهية المحبوبة، وما قسم للإنسانية كلها أريد في أعماق ذاتي أن أستمتع به، وأريد بكل روحي أن أبلغ الأعلى والأعمق، وأن أكدّس سعادتها وشقاءها على قلبي، وهكذا تتوسع ذاتي إلى ذات الإنسانية، وفي النهاية أتداعى كما تتداعى هي»[13]

هكذا كانت شخصية فاوست وقدرته العجيبة على التغلب على الشيطان مصدر إيحاء للحكيم في رفضه لواقع اجتماعي رهيب قرّر أن يكون محل اهتمام من قبل المفكرين والمثقفين قصد المساهمة في تشخيصه والوقوف عند أسبابه وعوامله.. ومن ثمة العمل على تغييره نحو الأفضل يحدوه في ذلك أمل كبير، فكلما كان المسعى نبيلا كانت النتيجة أنبل وأجمل.

2- البعد السياسي:

الإيمان بحتمية التطور الاجتماعي فكرة أساسية عند الحكيم، ولكن غاية هذا التطور مرهونة بسلوك الأشخاص ومدى ما فيه من إيجابية ووعي، وبذلك يمك نأن يكون التطور مجرد حركة فاقدة الاتجاه أو انتكاسة، تمدنا مسرحية "نحو حياة أفضل" بأهم أفكار الحكيم حول قضية الثبات والتطور في حياة المجتمع من منظور سياسي وقوفا عند العوامل المختلفة لذلك ومنها:

2-1- غياب النظرة الاستراتيجية:

لا يتردد الحكيم في الكشف عن الوضع المأسوي الذي يتخبط فيه الشعب المصري بعد ثورة يوليو 1952، وتحميل ذلك للمسؤولين الذين قاموا بإصلاحات مستعجلة بعيدا عن كل تخطيط ودراسة وبُعد نظرٍ، فتحمسوا مثلا لاعتماد جمعيات مختلفة تنشط في مجالات عدّة منها الجمعيات الفلاحية التي وفرت الآلات لأناس لم يعرفوا قطّ مثلها وعليه تعذر عليهم استغلالها وتشغيلها كما يجب، ومثلها المصانع المختلفة التي كانت تستقبل المحاصيل الفلاحية لتحولها إلى مواد معبأة وهي عملية ليست بالهيّنة إذ تحتاج إلى تكوين ومعرفة دقيقة بغرض الحفظ والصيانة والمراقبة... من هنا ضاع المواطن أمام حقائق يستحيل عليه أن يتجاوب معها وبالتالي ضاع وتاه بين أصالة تخلى عنها وتطور تعذر عليه التأقلم معه، فالحكيم هنا ثائر على الحكام الذين زجوا بالمواطنين في عالم يستحيل أن يفقهوا فيه شيئا، فنحن هنا أمام توظيف سياسي لفاوست، فثورة 1952 جنّدت وسائلها الهائلة خاصة منها الإعلامية لتبين بأنها بذلت مجهودات جبارة لتغيير الواقع المرّ لكن هي في الحقيقة كلمات جوفاء وليس إصلاحات[14]، فالسياسيون فشلوا كما فشل شيطان كل من غوته والحكيم، وظل وحده المصلح واعيا مدركا لكيفية التغيير باعتباره كاتبا ومفكرا، فهو يعي بأن «الحياة الإنسانية يدخل في نطاقها الواقع وغير الواقع، لأن حياة الإنسان-على خلاف حيات النبات والحيوان- لا تقف عند حدّ الوجود المادي، بل هي تشمل الوجود في مختلف نواحيه، المنظورة وغير المنظورة، المادية والروحية»[15]. إنها القناعة التي استلهمها الحكيم من فاوست

غوته الذي لم يفرط لحظة في قيمة المعرفة القائمة على تجريب المادي والروحي في الوقت نفسه: «من يعلمني؟ وماذا يجب عليّ أن أتجنب؟ هل ينبغي لي أن أطيع هذا الاندفاع؟ آه! إن أفعالنا ذاتها، شأنها شأن آلامنا، تعيق مسيرة حياتنا. في أنبل الأمور التي تتلقاها الروح تندس مواد غريبة متزايدة الغرابة...»[16]

لا أحد ينكر على الحكيم موقفه السياسي هذا، فالوضع الجديد الذي فرضته الثورة كان يقتضي استراتيجية مدروسة بكفاءة، إذ ليس من السهل العبور من سبات عميق وتهميش رهيب وتخلف مدمّر، إلى ثقافة عصرية تقوم على العلم والمعرفة والاكتشافات المذهلة، فكأننا بالحكيم يصرخ: انتصرت الثورة ولكن ما هو آت أخطر، فلنترك الحماس والشعارات الجوفاء، فاللحظة هي لحظة العمل الجاد القائم على المعرفة.

2-2- الصراع بين الفكر والسياسة:

شكّلت مغامرات فاوست العلمية ومثلها السياسية منطلقا هاما للحكيم في مسرحيته "نحو حياة أفضل"، فالصراع فيها بين العلم والسياسة يحتدم إلى درجته القصوى، فهو بحكم تجربته الطويلة في عالم الفن والقانون والفكر والأدب... وإقامته الطويلة في فرنسا... ترسّخت لديه فكرة شاملة وقناعة تامّة بأن عالم الغد يقوم على مبدإ جوهره العلم والعمل، وعليه كان يرى بأن إعداد الفرد العربي وتهيئته علميا وفكريا وروحيا هي القضية الأولى، ولا يجب على السياسة أن تتدخل في ما هو "مستعصي" عليها بطريقة غير مباشرة. يقول الحكيم إن المرحلة الراهنة هي مرحلة صراع بين عالِمٍ وسياسي، العالِمُ الذي يخدم والسياسي الذي يستخدم، فإذا كان العلم يحاول القضاء على الجوع باستنباط غذاء كما يقال من ماء البحر وأشعة الشمس، ونحو ذلك، عندئذ ستبدأ قضية جديدة هي من الذي يحكم؟ أهو العالم الذي يخترع ويكتشف، أم السياسي الذي يتفوّق بالحيل والمراوغة والقوّة؟[17]. لا يتردد الحكيم في الاعتراف بأن الغلبة حاليا هي للسياسي ولكن في الوقت نفسه يحمّله مسؤولية تدهور الأوضاع وضياع كرامة الإنسان بين الجهل والتخلف والاستغلال... وما الشيطان في المسرحية إلا أولئك السياسيون الذين وفروا رخاء ماديا –لإرضاء الشعب- دُسَّت فيه كل الشرور التي تميت روح الإنسان وتكبل عقله وقدراته الخلاقة المنتجة، فيبذر في نفوس الأفراد عدم الرضا والقناعة بما لديهم، وينمي الحقد والحسد بينهم، فها هو الأجير "محروس" بعد أن تحسنت أحواله فَقَدَ طيبته وملأ الحسدُ قلبه وثار على جاره: «لي جارٌ مُلاَصِق يملك أربعين فدّانا... أردت أن أشتري منه خمسة فدادين فرفض الملعون!... وهل هو محتاج؟! إن له على الأقل أولادًا أكثر مني، يعملون كلهم بأجور مجزية...»[18]. أيُّ رخاء هذا الذي يُحَوِّلُ الجار إلى ملعون، ويصبح فيه الأولاد محلّ حقد وبغضاء؟! لقد تحوّل هذا الرخاء جحيما نفسيا وروحيا وماديا واجتماعيا لا يطاق، إنها نتائج السياسة المندفعة القائمة على المظاهر البعيدة عن الحس الوطني والوعي الفكري، فكأننا بالحكيم يؤكد على أن "الشيطان عاجزٌ عن فعل الخير وعاجز عن بذره في نفس الإنسان، لأنه جبل عن فعل الشر والدعوة إليه، وسواء أصدقنا ما قاله عن "عهده الجديد" ومبادئه الجديدة أم لم نصدق، فيظل الأساس هو عجزه عن فعل الخير ولو أراد[19].

إن مفكرنا في اتجاهه الفكري والفلسفي يحاول أن يحدّد مواضع الداء ولا يقف منها موقف المتفرج، بل يقدم لنا سبل العلاج: «أريد إنسانا أرقى... أريد إدراكا أفضل لمعنى الحياة... شرطنا هو أن تصلح الناس... وإصلاح النّاس يشمل إصلاح النفس قبل كل شيء! هذا هو جوهر الإنسان».[20]

يصر الحكيم على أن تكون للكاتب رسالة وعليه أن يسعى بكل ما يملك من قوّة إلى الدفاع عن الحضارة، والدفاع عن النور وذلك حتى يعيش عصره ولا يهرب منه إلى كهوف الماضي، وما فيها من ظلام. إنها قناعة

فاوست التي ما فتئت تجول في خاطر الحكيم ونفسه، ولعل أبرز من يمثل هذا الظلام هو البعد الرمزي للشيطان بوصفه تجسيدا لحضارة مادية عارية من كل القيم الروحية والمبادئ الجمالية بكل شرورها المدمّرة، ففاوست غوته انتصر في النهاية بعد أن تخلى عن كل مظاهر الحياة المادية، وتشبع بحكمة العقل وصحوة الضمير، واقتنع بصفته عالما بأن له رسالة سامية لا بد من القيام بها، فشمّر على ساعديه وراح يعمل ويعلّم الناس سر الحياة وجوهر الطبيعة متحديا الشيطان في ثبات إلى حدّ أثار إعجابه، فها هو مفستوفيلس يعترف: «لا تشبعه شهوة، ولا يقنع بأية سعادة، واستمرّ يشتاق إلى أشكال متعددة، واللحظة الأخيرة، الأليمة، الفارغة، هذا المسكين يريد أن يوقفها. وهذا الذي قاومني بكل قوة ها هو ذا الزمان قد تغلّب عليه...»[21]. وجدير بالذكر أن فاوست جوته كان العمل الذي بدأ منه الحكيم، حيث كان المصلح يقرأ هذا العمل في الليلة التي قابل فيها الشيطان، وعليه تأثر بدءًا بإبرام العقد ونهاية بالتنكر لهذا العقد، لأن الحكيم تعلم من فاوست بأن الإنسان لا يستطيع أن ينفك عن إنسانيته أو انتمائه إلى الجماعة أينما كان من الأرض أو بعيدا عن الأرض وتحت أي شعار أو منهج هو إنسان أولا، وفي مجتمع ثانيا، وعمله وعلمه يعودان إلى الجماعة وينبغي أن ينبعا منها في كل الأحوال.

الهوامش والإحالات:

[1])- توفيق الحكيم: نحو حياة أفضل، مجموعة المسرح المنوّع، مكتبة الآداب، القاهرة، دط، 1970، ص816.

[2])- المصدر نفسه، ص821.

[3])- المصدر نفسه، ص823.

[4])- المصدر نفسه، ص824.

[5])- المصدر نفسه، ص829.

[6])- المصدر نفسه، ص 824.

[7])- المصدر نفسه، ص827.

[8])- المصدر نفسه، ص827-828.

[9])- المصدر نفسه، ص828.

[10])- محمد الدالي: الأدب المسرحي المعاصر، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1999، ص113.

[11])- توفيق الحكيم: نحو حياة أفضل، ص821.

[12])- المصدر نفسه، ص829.

[13])- جيته: فاوست: النص المسرحي 1، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، وزارة الإعلام، الكويت، دط، 1987، ص69.

[14])- محمد أبو الفضل بدران: فاوست النص المهيمن في الأدب العربي، "فاوست الجديد" لعلي أحمد باكثير أنموذجا، مجلة كلية الآداب، المجلد 62، العدد 3 (الآداب والعلوم واللغة)، وحدة النشر العلمي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2002، ص101.

[15])- علاء الدين وحيد: قصص توفيق الحكيم، عالم الكتاب، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، عدد 19، 1988، ص43.

[16])- جيته: فاوست، النص المسرحي1، ص31-32.

[17])- أحمد شمس الدين الحجاجي: الأسطورة في المسرح المصري المعاصر، دار المعارف، القاهرة، دط، دت، ص309.

[18])- توفيق الحكيم، نحو حياة أفضل، ص826.

[19])- عصام بهي: الشخصية الشريرة في الأدب المسرحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1986، ص149.

[20])- توفيق الحكيم: نحو حياة أفضل، ص829.

[21])- جيته: فاوست: النص المسرحي2، ترجمة وتقديم عبر الرحمن بدوي، وزارة الإعلام، الكويت، دط، 1989،ص272.